هنا بدأ التاريخ

(حول الأصالة في حضا
وادي الرافدين

تأليف: س. ن. كريمر
ترجمة: ناجية المراني

الموسوعة الصغيرة

٧٧

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب
تصدرها دار الجاحظ للنشر

رئيس التحرير: موسى كريدي

الكتاب القادم :

ظهور
الرواية الانكليزية

تأليف: أيان وات

ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز

السعر ٥٠ فلسا   دار الحرية للطباعة - بغداد

ناجية خليل المرا[illegible]

عملت في المدارس الانكليزية مدة 22 سنة [illegible] بعد التقاعد ـ واصلت دراستها فحصلت على بكالوريوس أدب انكليزي من كلية الآداب عام 1969 .

حصلت على ماجستير أدب إنكليزي ـ مقارن من الجامعة الامريكية في بيروت عام 1972 مسجلة على الدكتوراه / قسم اللغة العربية والدراسات الشرقية ـ مقارن ـ في الجامعة المذكورة ـ

من مؤلفاتها :

- بين العربية والانكليزية ـ مفردات متناظرة 1979 .
- الحب بين ثرايين ـ صدر عن وزارة الثقافة والاعلام 1980 .
- نشرت عدة دراسات ادبية ونقدية وترجمت العديد من المقالات والقصص القصيرة ـ

الموسوعة الصغيرة

(٧٧)

...

[الرافدين]

منشورات دار الجاحظ للنشر ـ وزارة الثقافة والاعلام

ايلول ١٩٨٠ بغداد

الموسوعة الصغيرة

(٧٧)

... هنا بدا التاريخ ...

[حول الاصالة في حضارة وادي الرافدين]

تاليف : س. ن. كريمر
ترجمة وتلخيص : ناجية المراني

مقدمـة

لست مؤرخـة ، ولكـن كتابا استهواني ، فأحببت نقله الى العربية • مؤلف هـذا الكتاب عالم من علماء الغـرب المتخصصين بالدراسات السومرية • قرأ الالواح التي خلفها أجدادنا ، سكان وادي الرافديـن القـدماء ، فشدهتـه انجازات القوم ، وقال فيهم قولة حق • لذلـك عمدت الى ترجمة كتابه ترجمة ملخصة ومبسطة ، لكي يكون سهلا تناوله وميسورة قراءته* •

الانسان في هذه المنطقة من الارض ، كمـا يقول الكتاب ، سـبق الناس كلهـم في جميـع

---

* الكتاب الذي اعنيه هو :
S.N. Kramer. History Begins at Sumer London, 1959.

المجالات • كان أول من تفاهم بالحرف المكتوب، وتلك هي أعظم خطوة خطاها البشر في طريــــق الحضارة • أنشأ في هذه البقعة الطيبة من الارض أول مدرسة ، فكان هنا أول تلميذ ، وأول معلم، واول كتاب مدرســي ، واول قاموســس ، واول مكتبة ، وكلها أحداث فريدة في تاريخ البشرية • كان هنا اول مجلس تأسيسي يتبادل فيه الحاكم الرأي مع الشعب ، وتلك هي أول خطوة في سبيل حرية الرأي والديمقراطية • كان هنا اول قانــون عرفه الانسان ، وتلك هي أول خطوة اتخذت من أجل العدالة وصون حقوق الناس • كانت هنــا اول سجلات صيدلة ، وهو حدث عظيم في سـبيل تسخير العلم من اجل الانســان • كان هنا أول تشريع ديني ، واول نظام اخلاقي ، واول جــدل أدبي ، واول ملحمة وفروسية ، واول نوح ، واول

بعث وقيامة ، واول أغنية حب ، واول عهد ذهبي عرفه الانسان •

هذه الخلفيــة الحضاريــة الاصيلة كانت ومازالت وراء هذا البلد الامين • هــذا البلــد الذي استطاع ان يسترجع ابان الثورة العربيــة الاسلامية ، وفي أيام الرشيد والمأمون بالــذات ان يسترجع عهده الذهبي واشعاعه الحضاري • وهاهو اليوم ماض قدما في الطريق التي سبق له ان سار عليها ، وانه بها لعليم •

ناجية المراني

١٠ — ٦ — ١٩٧٩

أول مدرسة في العالم

ان اول مدرسة في العالم كانت قد اسست في هذه البلاد الطيبة ، بلاد ما بين النهرين ، وكان ذلك قبل خمسة الآف سنة ، حيث عرف السومريون الكتابة لاول مرة في التاريخ . وكانت المدرسة السومرية ثمرة اكتشاف الكتابة وتطورها وتلك هي اعظم الانجازات الحضارية التي انجزها البشر عبر القرون . تحدثنا عن كل ذلك الوثائق السومرية المكتوبة التي استخرجت من تحت الارض في جنوب العراق ، فقرئت وترجمت من قبل المختصين . وتتكون تلك الوثائق مما يزيد على الف لوح طيني ، يحمل بعضها مفردات كتبت كتمارين مدرسية ، مما يشير الى ان اجدادنا كانوا

يفكرون بطرق التدريس منذ الالف الثالث قبل الميلاد . ويذكر ان عدد المدارس ازداد في بلاد سومر ابتداء من منتصف الالف الثالث قبل الميلاد، وغدا التعليم آنذاك نظاميا . وقد اكتشف في اوائل القرن الحالي عدد من الكتب المدرسية تعود الى ذلك التاريخ وتشمل مادتها معظم نواحي الحياة الادارية والاقتصادية . ويعرف منها ان عدد الذين مارسوا فن الكتابة حينذاك يزيد على الآلاف ، منهم من كان كاتبا من الدرجة الاولى ، ومنهم من كان مساعدا ، منهم حكوميون ومنهم دينيون ، بينهم اقتصاديون واداريون وموظفون بارزون في الدولة .

وقد اكتشف عدد من الالواح يحمل تمارين مكتوبة من قبل الطلاب أنفسهم كجزء من واجبهم اليومي ، وهي تتراوح بين كتابة المبتدئين وكتابة الذين اوشكوا على التخرج . وكان المعلمون

السومريون لحسن الخط ، يحبون الكتابة عن حياة المدرسة ، وقد اكتشف جزء كبير مما كتبوه • وتتعرف من جميع ذلك على المدرسة السومرية ، اهدافها واهتماماتها ، طلابها وهيئاتها التدريسية ، مناهجها وطرق التعليم فيها • وتلك بلاشك ظاهرة فريدة فيحقبةسحيقة كهذه الحقبة من تاريخالبشر •

كانت اهداف المدرسة السومرية في البداية تقتصر على تعلم اللغة السومرية وتدريب موظفين للادارة والاقتصاد يعملون في دواوين الدولة وفي المعابد • ولكن تلك المدارس تطورت ، فتطورت اهدافها تبعا لذلك ، واصبحت مراكز للعلم والثقافة ، وتخرج منها العلماء والباحثون الذين درسوا مختلف فروع المعرفة كاللاهوت وعلم اللغة والنبات والحيوان والجغرافية والتعدين والرياضيات وغيرها ، ثم قاموا بدورهم ، بتطوير تلك العلوم • وكانت المدارس السومرية في الوقت

نفسه مراكز للكتابات الادبية المبدعة ، فقد ولدت فيها جميع الاعمال والآثار الادبية المبتكرة • كان معظم الخريجين ينخرطون في خدمة القصر والمعبد ، ولكن منهم من ينصرفون الى التعليم ويعتمدون في شؤونهم المعاشية على مرتباتهم ، وهؤلاء يوقفون اوقاتهم للبحث والكتابة ، شأنهم في ذلك شأن اساتذة الجامعات في وقتنا الحاضر • وبذلك خرجت المدرسة السومرية من سلطة المعابد ، واصبحت مدنية تدفع فيها رواتب المدرسين من اجور الطلاب ، لهذا السبب كان التعليم مقتصرا على ابناء الاغنياء القادرين على دفع الاجور ؛ كما ان الوثائق السومرية لم تخبر عن وجود فتيات في تلك المدارس •

كان مدير المدرسة السومرية يدعى أب المدرسة ، والطالب ابن المدرسة • اما المدرس فهو الاخ الكبير ، وواجبه كتابة الواح جديدة كي

ينسخها الطلاب ، وتصحيح ما نسخوه ، وسماع ما حفظوه من واجبات الامس • وتحتوي المدرسة بالاضافة الى ذلك على اعضاء آخرين ، كالمسؤول عن الرسم ، والمسؤول عن السومريات ، ومراقب الحضور ، والمسؤول عن حفظ النظام وغيرهم •

وتحتوي الوثائق السومرية على معلومات تدور حول مناهج التعليم ، وهي معلومات فريدة من نوعها في تأريخ البشر القديم ، حيث ان الوثائق نفسها عبارة عن كراريس الطلاب ابتداء من أول محاولة للنسخ حتى تصل الى كتابة تلميذ تماثل كتابة الاستاذ • ويعرف من تلك الوثائق ان منهج المدرسة يشتمل على نوعين من الدراسات هما :

١ ــ الدراسات العلمية •

٢ ــ الدراسات الأدبية •

أما الدراسات العلمية فقد تطورت عن هدف أساس كانت المدرسة السومرية تسعى لتحقيقه ،

وهو تعلم اللغة تعلما صحيحا • وقد صنف المدرسون اللغة الى فئات كل فئة منها تتألف من مفردات ومقاطع ذات علاقة ببعضها البعض ، يكتبها التلميذ ثم يحفظها • وجعلت كل فئة على لوح خاص بها ، فكانت تلك الالواح كتبا نموذجية استعملت في كل البلاد • وتحتوي تلك الالواح على قوائم باسماء الاشجار والنباتات ، انواع الحيوانات ، اسماء الاقطار والمدن والقرى اسماء الاحجار والمعادن •• ويمكننا القول بان تلك الالواح هي بمثابة كتب للمعلومات النباتية والحيوانية والجغرافية والمعدنية • وقد اعد رجال التعليم السومريون الواحا كتبوا عليها مسائل رياضيات مع حلولها ، فكانت نماذج مبسطة لكتب الرياضيات • اما دراسة قواعد اللغة السومرية فقد كانت متقدمة ، حيث وجدت الواح تحتوي على قوائم اسمية او فعلية ، مما يشير الى مفهوم

لغوي صحيح • وبالاضافة الى ذلك ، وبعد ان أخذ الاكديون يسيطرون على زمام الامور خلال الربع الاخير من الالف الثالث قبل الميلاد ، احترف السومريون صناعة القواميس السومر ــ اكدية ، وتلك هي اقدم قواميس عرفها تاريخ اللغة •

اما الدراسات الادبية فكانت تتناول كتابة وحفظ الانتاجات المبتكرة ومعظمها شعرية كالملاحم التي تمجد اعمال الالهة والابطال ، والقصائد التي تقال في رثاء المدن السومرية التي يخربها الاعداء ، وقصائد الحكم والامثال ، وهناك القصص الديني وقصص الحيــــوانات والمقالات التي تكتب في مناسبات متفرقة •

لقد اشارت الوثائق بالاضافة الى ذلــك ، الى نظام التعليم في المدرسة السومرية ، ويكون باعداد الواح من قبل الاخ الكبير او الاستاذ ،

تتضمن مادة الدرس الجديد يسلمها الى التلاميذ لكي ينسخ كل منهم لوحة ، ثم يصحح الاستاذ تلك الالواح ، ويبدأ التلميذ يومه منــذ الصباح الباكر بدراسةلوحه واستظهاره غيبا ، لكي يكون مستعدا لتسلم اللوح الجديد الذي يعدهمدرسه• ولاشك في ان المدرسين كانوا يقومون بايضاحات شفهية للمادة الواردة في تلــك الالواح ، الا ان شيئا من تلك الايضاحات لم يصل الينا مكتوبا • ولابد من الاشارة الى ان نظام التعليم السومري لا يميل الى التساهل ، فالمدرسون السومريون ، وان كانوا يشجعون الطلاب المجدين بالثناء عليهم الا ان الاعتماد الاساس كان على العصا • وتشير الوثائق الى ان التلميذ كان يقضي نهاره كاملا في المدرسة ، ويستمر في دراسته منذ الطفولة حتى يتخرج في مرحلة الشباب ، كما تشير الوثائق الى ان الطالب السومري لا يختلف عن زميله الطالب

الحديث ، وان طبيعة الانسان لم تتغير كثيرا خلال الوف السنين • فقد اكتشف لوح سومري يتحدث كاتبه عن حياة تلميذ المدرسة اليومية ، ويكشف عن العلاقة بين التلميذ ووالده واستاذه ، ويجد القارىء أدناه شيئا من محتويات تلك الوثيقة الاولى والفريدة في تاريخ المدارس في العالم •



اول علاقة بين المدرسة والبيت

ان الوثيقة السومرية التي تتحدث عن الحياة اليومية لطالب مدرسة ، هي واحدة من أعظم الوثائق الانسانية التي اكتشفت في منطقة الشرق الاوسط حتى الآن • اذ انها تحتوي على مقالة كتبها معلم مدرسة عاش قبل ثلاثة الآف سنة ، جاءت باسلوب بسيط وكلمات واضحة تكشف ان التلميذ السومري لا يختلف كثيرا عن زميله التلميذ المعاصر ، وان طبيعة البشر لم تتغير الا قليلا جدا خلال الوف السنين • تتحدث هذه الوثيقة عن تلميذ يستيقظ صباحا فيحث امه على الاسراع بتهيئة وجبة غذائه التي يصحبها الى

المدرسة • وفي المدرسة يتجنب جهده سوء السلوك خشية العصا • تبدأ المقالة بسؤال مباشر يوجهه المؤلف الى التلميذ قائلا :

ـ الى اي مكان ذهبت منذ كنت طفلا صغيرا ؟

فيجيب التلميذ :

ـ ذهبت الى المدرسة •

ويسأل المؤلف :

ـ وما الذي كنت تفعله في المدرسة ؟

ويجيب التلميذ اجابة مطولة يقول فيها :

ـ لقد كنت استظهر لوحي القديم ، آكل غذائي ، احضر لوحي الجديد فانسخه وأنتهي منه ، ثم اتسلم واجبي الشفهي الجديد • واما بعد الظهر فانهم يعينون لي واجبي الكتابي ، وعندما انصرف من

المدرسة واعود الى البيت ، أجد والدي جالسا هناك ، فأقرأ أمامه ما حفظته من دروسي ، فيسره ذلك ، وانام ، فاستيقظ في صبيحة اليوم الجديد ، واطلب من امي طعامي ، وآخذه مسرعا الى المدرسة ويراني المراقب ، فيسألني عن سبب تأخري ، وادخل فأقدم لمعلمي التحية بأدب ، وانا خائف واجف القلب •••

وتستمر المقالة بوصف حياة التلميذ داخل المدرسة وتعرضه للعقاب كلما اخطأ التصرف او قصر في اداء الواجب ، كأن يتكلم وقت الدرس ، او يقف في غير وقت الوقوف ، او يخرج دون اذن• وفوق ذلك فان المعلم يخبره ان كتابة لوحه في ذلك اليوم ليست مرضية • ويعود التلميذ الى البيت فيحدث والده بحديث يومه ، ويرجوه ان يدعو المعلم الى بيتهم ويتلطف معه • وتقول الوثيقة

ان الوالد استجاب لرجاء ابنه ، ودعي المعلم الى بيت الطالب وتلطف معه الجميع واجلسوه في مقعد الشرف ، ووقف الطالب على خدمته ،ثم تلا الطالب على مسمع والده ومعلمه ما حفظه من واجبات شفهية . وفي ختام الزيارة شكر الوالد معلم ابنه وكرمه وقدم له بعض الهدايا اللائقة . وقام المعلم بدوره فأثنى على تلميذه متمنيا له اتقان واجباته والنجاح والمستقبل الزاهر .

★ ● ★

أول حكم ديمقراطي في العالم

ان تطور الانسان الاجتماعي والروحي يكون في اغلب الاحيان بطيئا يصعب تتبعه والتعرف على مراحله ، وهو يشبه بذلك الشجرة التي يكتمل نموها فتغدو مختلفة عن البذرة التي انحدرت منها ثم افترقت عنها بمراحل عديدة . ومثل ذلك ما يعرف اليوم بالديمقراطية ، وما ترتكز عليه من قاعدة متمثلة بالجمعية التأسيسية . فهي تبدو أول وهلة وكأنها ثمرة من ثمرات الحضارة الاوربية الحديثة ، ولا يمكن لاي فرد ان يتصور بأن اول جمعية تأسيسية كانت قد عقدت قبل الآف السنين في بقعة من بقاع الشرقالاوسط

وليس في اوربا • ان عالم الآثار المثابر حين قـام بتحرياته الواسعة العميقة لم يكن يعلم انه سيحصل على وثيقة تكشف النقاب عن ان اقدم جمعية من هذا النوع كانت قد اجتمعت قبل خمسة الآف سنة وفي بلاد ما بين النهرين بالذات •

كانت الجمعية التأسيسية الاولى في تاريخ البشر قد اجتمعت في سومر في الالف الثالث قبل الميلاد ، وهي لا تختلف عـن مثيلاتها في وقتنا الحاضر ، كما تقول الوثيقة ، حيث انها تتألف من مجلسين : احدهما مجلس الشيوخ ، والآخر هو مجلس الشعب من المحاربين او حملة السلاح • لقد انعقدت هذه الجمعية بمجلسيها وكان الوطن السومري قد تعرض للخطر ، خطر الاعتداء • فكان عليها ان تقرر احد امرين : اما الحرب والمحافظة على الكرامة والاستقلال ، واما السلم الذي يعني الاستسلام بأي ثمن • لقد صوت مجلس الشيوخ

المحافظين ، كما تقول الوثيقة ، مؤيدا السلم بأي ثمن كان • ولكن الملك لم يوافق على هذا القرار فأحال الامر الى مجلس الشعب من حملة السلاح وجاء قرارهم مؤيدا الحرب والحرية •

ان هذه الجمعية التأسيسية الاولى من نوعها في تاريخ البشر ، لم يكن مقرها بلاد الاغريق او الرومان ، فقد عرفت هذه البلدان الديمقراطية في زمن متأخر جدا قياسا بالزمن الذي كانت به هذه الجمعية قد اجتمعت في سومر في جنوب العراق كما ذكرنا ، حيث طور سكان تلك المنطقة اعلى حضارة آنذاك •

كانت سومر قبل اربعة او خمسة الآف سنة تتألف من ولايات عديدة تتركز حول نصب ومباني ذات شهرة واسعة • وكان تجارها ينقلون بضائعهم عبر البر والبحر ، الى الاقطار المجاورة ، وكان مفكروها وعلماؤها قد وضعوا نظاما دينيا

كان هو الكتاب المقدس ، لا في سومر وحدها ، وانما في جميع انحاء المنطقة آنذاك ، وكان شعراؤها يغنون آلهتهم وابطالهم وملوكهم اغاني الحب والبطولة • وقد توج السومريون اعمالهم تلك بابداع وتطوير نظام الكتابة نقشا بالريشة على الصلصال ، الأمر الذي جعل الانسان قادرا على تسجيل اعماله ومنجزاته ، افكاره ومعتقداته ، آماله وآلامه ، لأول مرة في التاريخ • فليس من المستغرب والحالة هذه ان نجد انسان سومر متفوقا كذلك في ميدان السياسة •

ان الوضع السياسي الذي دعا الى اجتماع الجمعية التأسيسية الاولى هو كون البلاد تتألف من ولايات عديدة كما قلنا ، وان تلك الولايات تتنافس فيما بينها على الزعامة • وكانت كيش من اكبر تلك الولايات واهمها ، حيث تقول الموروثات الشعبية السومرية ان السماء قد عهدت الى كيش

بدفة الحكم مباشرة بعد الطوفان • ولكن بمرور الأزمان ، نمت مدن سومرية اخرى • واهم تلك المدن هي الوركاء (ارك) الواقعة جنوب كيش والتي غدت تنافسها في السيادة • وقد ادرك ملك كيش ان الوركاء اصبحت مصدر خطر له ، فهددها بالحرب ما لم تعترف بسيادته عليها • وفي هذه اللحظات الحاسمة ، دعا ملك الوركاء جمعيته الى الانعقاد والتصويت ، فاما حرب وشرف ، واما سلام واستسلام •

لقد وردت قصة النزاع بين الوركاء وكيش ضمن ملحمة سومرية ، ابرز ابطالها آجا ، آخر حكام السلالة الاولى في كيش ، وجلجامش ملك الوركاء وسيد كولاب • وقد افتتحت الملحمة بحضور رسل آجا حاملين معهم انذارا الى جلجامش • لم يتخذ جلجامش قرارا انفراديا ولم يعط جوابا ، ولكنه دعا مجلسيه الى الانعقاد ،

وتشاور مع مجلس الشيوخ اولا ، فأقر مبدأ التراضي والتسليم ، ذلك المبدأ الذي لم يرض الملك ، فعاد وعرض الامر مجددا على مجلس الشباب الذين قرروا الحرب لا التسليم • ولم يطل الامر ، كما يقول الشاعر في ملحمته ، اكثر من خمسة او عشرة ايام ، حتى كان آجا يحاصر الوركاء بجيوشه • ويجد القارىء ادناه ترجمة حرفية لبعض مقاطع الملحمة :

هاهم رسل آجا
يتقدمون من كيش الى جلجامش في الوركاء ،
الملك جلجامش وضع الامر
امام شيوخ المدينة ،
طالبا كلمتهم :
« لا تدعونا نسلم لكيش ، بل دعونا
نجابهها بالسلاح » •
ومجلس الشيوخ

اجاب جلجامش :
«دعنا نسلم لكيش ، فلا نجابهها بالسلاح» •
جلجامش سيد كولاب
منجز الاعمال العظيمة على شرف الالهة
انانا ،
لم تلامس قلبه كلمات شيوخ المدينة ،
وعاود الامر ثانية ،
طرحه امام مجلس محاربي المدينة ،
طالبا كلمتهم :
« لا تدعونا نسلم لكيش ، دعونا نجابهها
بالسلاح » •
ومجلس محاربي المدينة
اجاب جلجامش :
«لا تسلم لكيش ، دعنا نجابهها بالسلاح» •
جلجامش ، سيد كولاب
لدى سماعه قرار مجلس محاربي المدينة ،

ابتهج قلبه ، واشرقت بالنور روحه .

لقد كان شاعرنا لا يحب الاطالة ، فقد ذكر الجمعية التأسيسية بمجلسيها دون ان يذكر التفاصيل ، لم يخبر عن عدد أعضاء كل من المجلسين وكيفية انتخابهم ، ولم يقل لنا كيف يتم التصويت . اذا لابد ان يكون هناك من يدير الجلسة ، وان تكون هناك مناقشات واجتماعات جانبية بين الكواليس ، كما نقول ، وذلك قبل ان تتوصل الفئتان ، فئة الحرب وفئة السلم الى قرار نهائي . لم يصل الينا تفصيل ذلك ، حيث ان الذي وصل الينا مكتوبا من عهد آجا وجلجامش قليل ، اذ ان الكتابة كانت في اطوارها الاولى آنذاك ، وان ما ورد في الملحمة كان لابد عالقا بالاذهان وقد كتب على الالواح بعد الحادث ، أي بعد انعقاد الجمعية التأسيسية السومرية بما يقرب من الف سنة .

أول اصلاحات اقتصادية واجتماعية

ان اول اصلاحات اقتصادية اجتماعية كانت قد حدثت في سومر ودونت في سجلاتها التي تعود الى الالف الثالث قبل الميلاد ، حيث وردت ضمن تلك السجلات كلمة الحرية « امارجي » بمفهومها الحديث ، وذلك لاول مرة في تاريخ البشر . ورد ذلك في وثيقة موجهة ضد تحكم سلطات الدولة البيروقراطية ، التي غالت بفرض الضرائب والتحكم بمصائر المواطنين وسخرت ممتلكات المعابد لمنفعتها الخاصة . تخبرنا الوثيقة ان اهالي لكش شعروا بانهم مضطهدون مستغلون ، فأطاحوا بحكم سلالة اورناش القديم ، واختاروا حاكما من اسرة اخرى

غيرها • وكان هذا الحاكم الجديد أوركاجين هو الذي استرد هيبة القانون، واستعاد النظام والامن، وثبت حرية المواطنين • لقد وجد كل ذلك في وثيقة ضمن سجلات الحاكم الجديد ، وهي وثيقة تكشف لنا عن اهم الممارسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الولايات السومرية آنذاك •

كانت لكش احدى تلك الولايات السومرية وذلك في الالف الثالث قبل الميلاد ، وكانت هذه الولاية تتكون من عدة مدن غنية تتجمع كل واحدة منها حول معبد • وكان حاكم لكش اسميا ، تابعا للسلطة العليا المتمثلة بملك سومر • اما في الواقع فقد كان يحكم ولايته باسم المعبود الذي كان قد قدر لتلك الولاية منذ الخليقة كما يعتقد السومريون • اما كيفية مجيء هؤلاء الحكام الى السلطة فانها غير واضحة ، ولكن

هناك ما يشير الى احتمال انتخابهم من قبل المواطنين ، وكانت ادارات المعابد تؤدي دورا مهما في ذلك • ومهما يكن الامر ، فان الحكم يصبح وراثيا بمرور الزمن •

كان سكان لكش يمتهنون الزراعة وتربية الحيوانات ، وكان بينهم الملاحون والصيادون والتجار والحرفيون • وكان اقتصاد الولاية اشتراكيا خاضعا لسلطة الدولة في بعض مجالاته، وحرا في مجالات اخرى • فالارض كلها ، هي ملك لمعبود الولاية من الناحية النظرية ، وواجب المعبد ان يحافظ عليها بامانة من اجل جميع المواطنين • وكان للمعبد املاك خاصة يعطيها مؤاكرة للناس لقاء قسم من ريعها • اما القسم الاكبر من تلك الارض فهو يعود الى المواطنين ، ولم يكن بينهم من لا يملك أراضي ومزارع ، بيوتا وقطعان ماشية ، بما في ذلك الفقراء وبالنظر

لكون مناخ لكش حارا قليل المطر ، فان جميع المشاريع الاروائية الضرورية لحياة المواطنين ومزارعهم وقطعاتهم انما كانت تدار بصورة تعاونية اشتراكية . هذا من ناحية ، اما من الناحية الاخرى فان حرية العمل والمجهود الشخصي كانت متوافرة مما يؤدي الى غنى العاملين المجدين والتجار والاشخاص الاخرين الذين يتوصلون الى الثروة بطرق مختلفة . ونجد في لكش مهرة العمال والحرفيين الذين يبيعون محاصيلهم ومنتجاتهم ومصنوعاتهم اليدوية في سوق المدينة الحرة ، كما نجد ان التجار المتجولين يحملون بضائعهم برا وبحرا ، وكان معظم هؤلاء من المواطنين الذين يعملون لحسابهم الخاص لا لحساب المعابد . وكان سكان لكش على علم تام بحقوقهم المدنية ، وهم يقظون تجاه اية حكومة تحاول الاعتداء على حريتهم الاقتصادية

والشخصية ، تلك الحرية التي يحافظون عليها كأساس لحياتهم . وتخبرنا الوثيقة السومرية ان اهالي لكش شعروا بفقدان تلك الحرية ، وذلك في الايام التي سبقت حكم اوركاجينا ، وقد استعادوا حين جاء هذا الرجل الى مركز القوة .

لا تذكر الوثيقة شيئا عن الاحداث التي ادت الى الفوضى والفساد والاضطهاد . ولكن يستشف مما ورد فيها بان تلك الحالة انما نتجت عن طموح سلالة اورناش الى السيطرة ، ذلك الطموح الذي دفعهم الى حروب توسعية دموية ادت بدورها الى فوضى سياسية واقتصادية واجتماعية . لقد نجح حكام لكش بعض النجاح في تحقيق اطماعهم التوسعية ، واستطاعوا فرض سيطرتهم على بلاد سومر وعلى بعض الولايات الاخرى المجاورة لها ايضا ، ولكن تلك الفتوحات

اثبتت عدم جدواها ، ولم تلبث لكش ان عادت الى حدودها الطبيعية بعد فترة وجيزة ، ولم يلبث حكامها من سلالـة اورناش حتى سقطوا مـن مراكزهـم •

لقد كانت فترة تلك الحروب القاسية وما اعقبها من ويلات ، هي الفترة التي وجـد فيها اهالي لكش انفسهم محرومين من حرياتهـم السياسية والاقتصاديـة يتخبطون في الفوضـى والفساد • فقد كانت الحكومة ، وهي تسـير الجيوش وتعد العدة للحروب ، مضطرة لفرض الضرائب الباهظـة واستغلال جميـع الممتلكات العائدة للمعابد • ولم يقاوم المواطنـون هـذا الاجراء ابان فترة الحروب • ولكـن بعـد ان انتهت تلك الفترة ، استمر ممثلو الحكومة على سياستهم في استغلال حقـوق المواطنين ، فقـد وجدوها سياسـة مربحـة ، وتفننوا في فـرض

الضرائب واوجـدوا طـرقا يحسدهـم عليهـا معاصروهم ، مما اثار حفيظة السكان •

ولندع الان المؤرخ الذي عايش احداث تلك الفترة في لكش قبل ما يقرب من أربعة آلاف عام ، لندعه يخبرنا بكلماته خبر تلك الوقائع • يقول المؤرخ السومري :

« مفتش الزوارق حجز الزوارق ، مفتش القطعان حجز القطعان ، مفتش الصيادين حجز الصيادين • حين يجلب المواطـن خـروفا لكي يبيع صوفه ، كان عليه ان يؤدي خمسـة شوقلات اذا كان الصوف ابيض • اذا شاء رجل ان يطلق زوجته ، كان عليه ان يدفع خمسـة شـوقلات للحاكم ، وواحدا للوزير ، اذا قام عامل بانتاج شيء من الزيت ، فعليه ان يدفع للحاكم خمسة شوقلات ، وواحدا للوزير ، وواحـدا لمحافظ القصر • اما بالنسبة للمعبد وممتلكاته فان الحاكم

قد استولى عليها كما لو كانت ملكه الخاص •
وحتى الموت لا يجلب الخلاص من الحياة • حين يؤتى بميت الى المقبرة ليدفن ، يحضر عدد من موظفي القصر لكي يسلبوا من أسرة الميت كميات من الذرة والخبز والشراب والاثاث • في طول البلاد وعرضها لا تجد الا جباة الضرائب ، فلا عجب ان بدأ القصر يسمن ويثري وتزداد اراضيه واملاكه • بيوت الحاكم وحقول الحاكم ، بيوت حريم الحاكم وحقول حريم الحاكم ، بيوت خدم الحاكم وحقول خدم الحاكم ، كلها تتزاحم وتصطف بجانب بعضها البعض » •

في هذه الفترة من الانحطاط السياسي والاجتماعي والاقتصادي كما تقول الوثيقة التاريخية ، أتى اوركاجينا ، الحاكم الطيب الذي يخشى الالهة • فأعاد الحق والعدالة والحرية الى المواطنين الذين قاسوا طويلا • لقد عزل

مفتش القطعان واعفاها من الضرائب ، كبيرها وصغيرها • لقد ازاح مفتش الصيادين ، كما اعفى جز الاصواف من الضرائب • لقد اعفى المنتجين من الضرائب ولم يعد يدفعها العامل الذي يستحصل مقدارا من منتجات الزيت • لم يعد موظفو الدولة يسلبون الكثير من أسرة الميت ، بل صاروا يكتفون بالقليل • لم تعد عيناك تقعان على جابي ضرائب في طول البلاد وعرضها ، لقد أعاد اوركاجينا الحرية الى مواطني لكش •

لم تكن ازاحة الجباة والموظفين الفاسدين هو العمل الاصلاحي الوحيد الذي قام به اوركاجينا ، فقد وضع حدا للظلم والاعتداء والتطاول وغيرها من الامور التي كان الضعفاء يعانونها ، اذ يصف المؤرخ السومري في وثيقة الوضع الجديد فيعطي امثلة منها قوله : اذا كان بيت الرجل المتواضع مجاورا لبيت الرجل الكبير،

وقال هذا الكبير لجاره المتواضع : اريد شراء بيتك ، وطلب الرجل المتواضع ثمنا معينا لبيته ، فان الرجل الكبير له ان يوافق على الثمن ويشتري البيت ، والا فانه لا يستطيع أخذه • وبالاضافة الى ذلك فان المؤرخ السومري يذكر ان اوركاجينا طهر المدينة من المرابين الجشعين واللصوص والقتلة • ويقول المؤرخ : لم يعد بامكان موظف كبير ان يتطاول على بستان امرأة فقيرة فيقطع الاشجار او ينهب الاثمار • لقد عاهد حاكمنا اوركاجينا آلهة لكش ، بانه لن يسمح باستغلال الارامل واليتامى من قبل ذوي المكانة والقوة •

لقد كانت اصلاحات هذا الحاكم الاقتصادية والاجتماعية خطيرة جدا بنظر المؤرخين السومريين فقد وجدت اربع نسخ منها محفوظة على الواح مختلفة اشكالها من الصلصال •

أول قانون في العالم

تكشف الوثائق التي وجدت حتى الان ، بان الحرية ضمن حدود القانون ، كانت هي الطريقة المثلى المتبعة في المجتمع السومري ، في الالف الثالث قبل الميلاد ، وان عدم العثور على نص لقانون مكتوب يعود الى ذلك الزمن لا يقوم دليلا على عدم وجود مثل هذا النص • فقد برهنت التنقيبات على وجود الالواح والوثائق التي ما زالت مطمورة تحت الارض والتي يتم اكتشافها تباعا ، الامر الذي يشير الى وجود اشياء اخرى جديدة لم تكتشف لحد الان •

ان شريعة حمورابي تعود الى اواخر الالف

الثاني قبل الميلاد ، وهي تحتوي على ما يقارب ثلاثمائة بند واردة ضمن مقدمة وخاتمة . وهي مكتوبة باللغة البابلية على مسلة حجرية ، نقلت بعد اكتشافها الى متحف اللوفر في باريس وما زالت تنتصب بجلال وشموخ في قاعة بارزة من قاعات ذلك المتحف . وتعتبر هذه الوثيقة من قبل المتخصصين بالقانون اول شريعة عرفها تاريخ البشر ، وذلك من حيث تكامل بنودها وتفصيلات نصوصها . ولكن هذه الشريعة التي تميزت عما سواها بالاكتمال القانوني ، لم تكن هي اول شريعة كتبها سكان وادي الرافدين . فقد اكتشفت في عام ١٩٤٧ وثيقة قانونية اخرى تعود الى زمن الملك ليبت ـ عشتار الذي سبق حمورابي باكثر من مائة وخمسين عاما . وردت هذه الوثيقة مكتوبة باللغة السومرية والخط المسماري على الواح من الطين المشوي بالشمس

لاعلى مسلة حجرية لمسلة حمورابي . ولم يمض اكثر من عام واحد على هذا الاكتشاف حتى استطاع الاستاذ طه باقر ، أمين المتحف العراقي عام ١٩٤٨ ، ان يكتشف في تل الحرمل لوحين جديدين يحتويان على شريعة تعود الى زمن سابق لشريعة ليبت ـ عشتار بسبعين عاما ، مكتوبة بالمسمارية وباللغة البابلية . وبالاضافة الى ذلك فقد توصل العلماء المختصون بهذه الدراسات الى ترجمة لوح آخر يحمل تشريعا يعود الى زمن أور ـ نمو مؤسس ثالث سلالات اور ، ويبدأ عهده سنة ٢٠٥٠ قبل الميلاد ، وهو يسبق عهد حمورابي بحوالي ثلاثمائة سنة .

ينقسم اللوح الذي يحمل هذه الشريعة الى ثمانية اعمدة ، اربعة منها على الوجه واربعة على الظهر . وتبدأ الاعمدة المواجهة بمقدمة جاء فيها ما يلي :

بعد ما خلقت الارض ، وقدر عليها قدر بلاد سومر ومدينة اور ، قام آن وانليل وهما المعبودان الرئيسان في سومر ــ بتعيين اله القمر نانا ملكا على اور • وبعد ذلك اختير اور ــ نمو من قبل الاله كي يحكم سومرواور كممثل له على الارض وكانت اول خطوة خطاها هذا الملك هي صيانة سومر وأور سياسيا وعسكريا ، ووجد ان الضرورة تقتضي ان يشن الحرب على لكش التي كانت قد وسعت حدودها على حساب اور • فاستطاع ان يهزم جيوشها ويقتل حاكمها • واستعاد لاور حدودها السابقة بقوة نانا • بعد ذلك ، التفت الى الشؤون الداخلية ، ووجه اهتمامه الى الاصلاحات الاجتماعية والاخلاقية واستطاع ان يقضي على جميع المحتالين المخادعين الذين اعتادوا ان ينهبوا اموال الناس ، ثيرانهم واغنامهم وحميرهم • ثم قام بتصحيح الموازيين

والمكاييل وتثبيتها • وأخذ يراقب سير العدالة في البلاد ، فلم يعد اليتيم يقع فريسة الاغنياء ولا الارملة تقع فريسة الاقوياء ، ولم يعد الفقير فريسة للغني •

وعلى الرغم من ان اكثر قطع اللوح مطموسة لا يمكن قراءتها ، الا ان الذي يفهم منها يشير الى ان تلك المقدمة تشرح بان هذا القانون انما سن من اجل رخاء المواطنين واقامة العدالة بينهم •

اما بنود الشريعة فهي مكتوبة على ظهر اللوح وقد وجدت بحالةسيئة • ولكن الذي قرىء وترجم منها يشير الى وجود نصوص تعتبر ذات اهمية خطيرة بكشفها عن مدى تطور البشر آنذاك من الناحيتين الاجتماعية والروحية • فقد ورد في تلك النصوص ما يشير الى ان قانون العين بالعين والسن بالسن الذي بقيسائدا حتى

عصور متأخرة ، هذا القانون قد عدل في سومر قبل ثلاثة الآف سنة ، وان هذه العقوبة قد استبدلت بالغرامة المالية التي تترتب على المجرم طبقا لدرجة جريمته .

ان سيادة القانون وتطبيق العدالة هي الفكرة الاساس التي كانت سائدة في سومر نظريا وعمليا ، وقد نظمت حياة المواطنين السومريين الاقتصادية والاجتماعية وفقا لهذا المبدأ.وقد عثر في اثناء التنقيبات على وثائق عديدة تتحدث عن ذلك ، ويجد القارىء فيما يلي محتويات احدى هذه الوثائق التي تكشف النقاب عن أول قضية قانونية في العالم .

أول سابقة قضائية

ان اول سابقة قضائية في تاريخ البشر وردت مسجلة في احدى الوثائق السومرية التي تعود الى اواخر الالف الثاني قبل الميلاد . هذه السابقة القضائية تتحدث عن جريمة ومحاكمة وعقاب .

تقول الوثيقة ان ثلاثة رجال هم حلاق وبستاني ورجل آخر لم تعرف مهنته ، اشتركوا في جريمة قتل رجل . وتخبرنا الوثيقة ان القتلة، لسبب مجهول ، اخبروا زوجة القتيل بجريمتهم، ولكن العجيب ان تلك الزوجة بقيت صامتة ولم تخبر السلطات عن وقوع تلك الجريمة . الا ان يد القانون في سومر كانت قوية فلم تفلت هؤلاء

المجرمين ، والقت عليهم القبض ثم عرضت قضيتهم على الملك اور ـ نينورتا في العاصمة . وقام الملك بدوره فحول القضية الى جمعية الشعب في مدينة نفر « موقعها قرب مدينة عفك الان » ، لكي تنظر هذه الجمعية في القضية . وتقول الوثيقة ان سبعة رجال من الجمعية قاموا بمهمة الادعاء العام واعلنوا ان طائلة العقاب يجب الا تقتصر على القتلة الحقيقيين ، وانما يجب ان تشمل المرأة زوجة القتيل حيث ان سكوتها وتسترها على المجرمين يجعلها بنظر القانون شريكة معهم . وانبرى من الجمعية رجلان آخران يمثلان الدفاع ، وقالا ان سكوت المرأة عن الاخبار له ما يبرره وذلك لان القتيل كان مقصرا في رعاية زوجته ، وان تلك الزوجة ليست لها يد في الجريمة ولا يترتب عليها عقاب. وصدر حكم جمعية الشعب في نفر بمعاقبة

المجرمين الثلاثة ، وهم القتلة الحقيقيون ، واعفاء المرأة .

لقد عثر على هذه الوثيقة مكتوبة باللغة السومرية على لوح طيني في نفر ، وبعد ترجمتها ومقارنتها بموقف المحاكم الحديثة من قضايا مشابهة اتضح ان جمعية الشعب السومرية قبل ثلاثة آلاف سنة كانت قد أصدرت حكما مطابقا لما يمكن ان تصدره محكمة حديثة في مثل تلك القضية . فقد أرسلت ترجمة الوثيقة الى عميد كلية القانون في جامعة بنسلفانيا، وسئل عن رأيه بما جاء فيها فقال مجيبا : لا تعتبر الزوجة شريكة بالجريمة من الوجهة القانونية وان مجرد سماع أي شخص بوقوع جريمة لا يجعل القانون يدينه في تلك الجريمة طالما هو لم يساعد او يواسي او يقوي المجرمين .

أول كتاب صيدلة في العالم

لم يكن القانون هو الحقل الوحيد الذي برع به السومريون قبل سواهم من البشر ، فقد توصلت التنقيبات الى اكتشاف وثيقة تحمل أول دستور للصيدلة في العالم . ان هذه الوثيقة تتحدث عن طب وعلاج لا اثر فيهما للسحر والتعاويذ والرقى ، وانما هما طب وعلاج على مستوى علمي . وقد كان مثل هذا الطب متداولا في سومر خلال الالف الثالث قبل الميلاد ، وورد ذكر اسم طبيب سومري كان يمارس مهنته في اور سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد .

لقد وجدت الوثيقة المذكورة اعلاه مكتوبة بالخط المسماري على لوح من الصلصال ، وتحمل

ما يزيد على اثني عشر نوعا من العلاج ، ويعتبر هذا اللوح اول كتاب صيدلة عرفه الانسان . وقد عثر على هذا اللوح في التحريات التي اجريت في نفر ، وهو موجود الآن في متحف جامعة فيلادلفيا . وتشير المعلومات الواردة في هذا اللوح الى ان الطبيب السومري الذي كتب الوثيقة كان يلجأ ، كزميله في وقتنا الحاضر ، الى النبات والحيوان وكذلك الى المعادن كمصادر اولية لاستخراج الادوية . وكان كلوريد الصوديوم ونترات البوتاسيوم من المواد المفضلة لديه في مهمته . أما من مملكة الحيوان فكان يستخدم الحليب ، وجلد الافاعي ، وتروس السلاحف . ولكن الوثيقة تشير الى ان معظم الادوية آنذاك كانت تستخرج من النبات واهم النباتات المستعملة في هذا المجال هي السنا ، وهو نبات من فصيلة الكمون ، والآس والمصطكى

والزعتر . وكانت تستخدم بالاضافة الى ذلك ، اشجار الصفصاف والكمثرى والتنوب والنخيل وكانت المواد الاولية للادوية تحضر من البذور او الجذور او الاغصان او قشور السيقان او الصموغ ، فتخزن ، كما في وقتنا الحاضر ، اما بحالتها الاصلية ، او على هيئة مساحيق . وكانت الادوية التي يصفها طبيبنا السومري تكون من مراهم او دهون للاستعمال الخارجي ، واما ان تكون سوائل معدة للشرب . ويتم تركيب المراهم بسحق مادة اولية او اكثر وتنقيع المسحوق بنوع من انواع الشراب (Infusion) وسكب زيت النبات على الخليط . ويستعمل الصلصال النهري في بعض الحالات كمادة اولية حيث يسحق ويعجن بالماء والعسل وينشر عليه زيت الحيوانات البحرية بدلا من زيت النبات . اما الوصفات التي تعمل بطريقة الترشيح فكانت اكثر

تعقيدا ، وهي مصحوبة بتعليمات للاستعمال . وهناك بعض الوصفات التي وظفت فيها طريقة الاستخلاص بواسطة الغلي (Decoction) وذلك بأن تغلى مقومات المادة الاولية بالماء ويضاف اليها شيء من القلى والملح . ولكي تفصل المواد العضوية يعرض المذاب للترشيح . الا ان ذلك لم يذكر بصراحة في تلك الوصفات.ويعالج العضو المريض بالمادة المستحصلة اما بالرش او بالغسيل ، وبعدها يسمح بالزيت .

اما بالنسبة للادوية التي تستعمل استعمالا داخليا فان البيرة كانت الوسيلة المفضلة لجعل تلك الادوية مستساغة من قبل المريض ، حيث كانت المواد الاولية تسحق وتحل في البيرة وتعطى الى المريض شرابا ، وكان الحليب يستعمل في بعض الاحيان لحل المواد الاولية .

يتضح من هذا اللوح الذي يعود الى الالف الثالث قبل الميلاد ، بان علم الصيدلة كان متفوقا لدى السومريين ، وذلك لان محتويات اللوح تكشف ، ولو بصورة غير مباشرة ، عن معرفة القوم بعمليات وتراكيب كيماوية متنوعة • اننا نجد مثلا ، في كثير من الوصفات ، ان التعليمات تقتضي ان تطهر المواد الاولية قبل سحقها ، وتلك خطوة تتطلب عمليات كيماوية عديدة • وهناك مثال آخر وهو ان القلى المسحوق والمستعمل كمادة اولية في احدى الوصفات كان هو رماد القلى المستخرج من حرق نوع من الاعشاب من فصيلة الحرضيات الغنية بالصودا • ومن المعلوم ان مسحوق الصودا المستحصل بهذه الطريقة كان مستعملا في القرن السابع قبل الميلاد ، وبقي مستعملا في العصر الوسيط في صناعة الزجاج • كما ان الوصفتين المذكورتين على اللوح

تستخدمان القلى المستخرج من مادة غنية بالدهن الطبيعي وذلك لعمل نوع من الصابون للاستعمال الخارجي • وقد وصفت مادة اخرى من قبل الطبيب السومري ، وتلك هي مادة لا يمكن استحصالها الا من قبل شخص لديه معلومات كيماوية جيدة عن نترات البوتاسيوم •

وحين نطلع على الوثائق الآشورية المتأخرة نستطيع ان نحكم منها بأن السومريين قد استطاعوا ان يستخلصوا منتجات نتروجينية من اماكن تصريف المياه • وكان فصل العناصر المختلفة عن بعضها يتم بطريقة التبلور التفاصلي او التجزيئي (Fractional Crystallization) وما زالت هذه الطريقة مستعملة في الهند ومصر ؛ حيث يخلط الكلس او الملاط القديم مع مادة عضوية نتروجينية لاستحصال نترات الكالسيوم

التي تصفى بدورها وتغلى مع رماد خشبي يحتوي على كاربونات البوتاسيوم لكي تعطي النتروجين عند التبخير •

ومن الجدير بالاشارة هنا ان هناك امرا يقلل من قيمة هذه الوثيقة المهمة ، وذلك انها خالية من ذكر اسماء الامراض التي وضعت من اجلها الادوية • ولذلك لا يمكن التعرف على قيمتها العلاجية • كما ان تلك الوصفات لم تشر الى كميات العناصر المستعملة في المركبات ، ولم تذكر عدد المرات التي يجب تناولها من قبل المريض • ويمكن ان يعزى ذلك الى التنافس المهني ، الامر الذي حمل الطبيب السومري على اخفاء التفاصيل عمدا لكي يصون سره عن جماعات اخرى لا طبية ، او حتى عن زملائه •

ان اهم ما تعكسه هذه الوثيقة هو الروح العلمية التي كتبت بها ، وذلك ان الطبيب

السومري الذي كتبها لم يعمد مطلقا الى اي نوع من السحر او الشعوذة او الرقى ولم يرد في الوثيقة كلها اسم احد الآلهة ، ذكر احد الشياطين • وهذا لا يعني بطبيعة الحال ان السحر والتعاويذ والرقى لم تكن معروفة في سومر في الالف الثالث قبل الميلاد ، فقد ورد مثل ذلك على الواح اخرى ، كما تحدثت الواح بابلية متأخرة عن الامراض التي تسببها الارواح الخبيثة في جسد الانسان والتي تطرد بالسحر والرقى والتعاويذ ، الا ان وثيقة طبيبنا السومري التي تحدثنا عنها أعلاه خالية من ذلك، لذلك فهي تعتبر بحق اول كتاب صيدلة علمي عرفه تاريخ البشرية •

أول تقويم زراعي في العالم

لقد كان لوحا طينيا صغيرا ذلك الذي عثر عليه في العراق ، في مدينة نفر السومرية ، وهو ذو أهمية عظمى في تاريخ تقنية الزراعة • وقد كانت البعثات الاثرية قد اكتشفت قبل هذا اللوح ثماني قطع صغيرة تحوي مقاطع من أصل الوثيقة الزراعية التي يحملها اللوح ، وكان جمعها والحصول منها على الاصل متعذرا ، حتى عثر على اللوح الاخير الذي يحتوي على خمسة وثلاثين سطرا • وبعد اصلاحه وترجمته اكتملت الوثيقة المتكونة من مائة وثمانية أسطر ، مكتوبة طوليا ، وهي تعليمات كان احد الفلاحين قد وجهها الى ابنه لكي يتبعها خلال موسم الزراعة السنوي

ابتداء من غمر الاراضي بالمياه في ايار ـ حزيران ، وانتهاء بتنظيف الغلة وتجفيفها في نيسان ـ ايار من العام القادم • ومن الجدير بالذكر هنا ان تاريخ الحضارة الانسانية عرف مثل هذه الكتابات فقد تم اكتشاف سجلين مماثلين يعودان الى زمن الاغريق والرومان حيث جاء الاول عن هيزيود والآخر عن فرجيل • واقدمهما وثيقة هيزيود التي تعود الى القرن الثامن قبل الميلاد ، بينما تعود الوثيقة السومرية الى سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، وبذلك تكون سابقة لوثيقة هيزيود بما يقارب الف سنة •

تبدأ الوثيقة السومرية بالعبارة الآتية : « لقد قدم احد الفلاحين لابنه هذه التعليمات في الأزمنة الخالية » • اما المعلومات التي تتضمنها الوثيقة فتتعلق بالواجبات والمجهودات التي تترتب على المزارعين في سبيل جودة الانتاج •

وتبدأ التعليمات بما يخص اعمال الري ، اذ توصي بالحذر كيلا يرتفع الماء كثيرا فوق الارض الزراعية ، وبعد امتصاص الارض المياه ، تجب حمايتها من ان تجوس خلالها الثيران او الحيوانات الاخرى ، كما يجب تنظيف الارض من الاعشاب والفضلات وتسييجها . ونجد ان الفلاح في هذه الوثيقة ينصح افراد أسرته وجميع المساعدين والاجراء ان يعدوا المعدات الزراعية اللازمة من ادوات وسلال وجوالق ، كما يجب اعداد ثور اضافي من اجل الحراثة . وقبل البدء بالحراثة ، يجب ان تكون الارض قد نبشت مرتين بالمعول ومرة بالمعزقة . كما يجب استعمال المطرقة عند اللزوم لكي تسحق العكر الصلبة . وينصح الفلاح ابنه بالوقوف بنفسه مع المشتغلين لكي يجري العمل وفقا للمطلوب .

يقول الفلاح في ارشاداته ، ان عمليتي

الحراثة والبذار يجب ان تنجزا على صعيد واحد، آلة حرث يصحبها بذار ذو قمع ضيق يصب نازلا الى الاخدود . وتقول التعليمات بوجوب شق ثمانية اخاديد في كل شقة ارض قدرها عشرون قدما ، كما توصي بان يكون البذر على عمق مناسب ، وفي حالة عدم ترسيخ البذرة جيدا في الارض فيجب اعادة النظر بالمكان المحروث.وتذكر الوثيقة نوعين من الاخاديد ، حيث ان الفلاح يوصي قائلا : عندما تشق اخاديد مستقيمة ، شق اخاديد مائلة ، وحيثما شققت مائلة ، شق مستقيمة ويوصي باعادة تنظيف الاخاديد بعد البذار لازالة ما يمكن ان يعرقل الانبات .

وتقول الوثيقة ان على المزارع ان يصلي الى الآلهة في يوم خروج النبتة من الارض ، وذلك لكي تحمي غلاله شرور الهوام وجرذان الحقول ، كما يجب عليه ان ينصب فزاعة الطيور . وحينما

تنمو الغلة وتملأ جوانب الاخدود يصبح سقيها واجبا •وحينما تصبح الغلة كثيفة فتغطي الحقل كما يغطي البساط ارض السفينة ، حينئـذ يجب سقيها مرة ثانية ، كما يجب ان تسقى الغلة مرة ثالثة • وحين يلاحظ احمرار ظاهر على الغلـة المنداة ، فان تلك علامة خطرة على المحصول ، اما اذا تحسنت الغلة وزالت هذه العلامة ، فيجب ان تسقىمرة رابعة وبذلكيزيد المحصولبنسبة ١٠٪ حين يأتي وقت الحصـاد ، يترتب على المزارع الا يترك السنابل تنحني تحت ثقل الغلة ، بل عليه ان يبادر فيحصدها في ابان قوتها وفي اللحظـة المناسبة • وعليه ان يشغل ثلاثة رجال كفرقة في عملية الحصاد : حاصد ، وجامع وشخص ثالث لم تذكر الوثيقة عمله •

اما عملية الدراسة التي تلي الحصاد فيجب ان تؤدى بآلة تسحب جيئة وذهابا فوق الحصيد

لمدة خمسة ايام ، ثم تفتح الغلة بآلة اخرى تجرها الثيران ، وحينها تكون الغلال غير نظيفة لملامستها الارض ، فتذرى بالمذراة وتجمع وتنقى • ولا تنس اقامة الصلوات شكرا للالهة • وفي ختام هذه الوثيقة يذكر الفلاح ان هـذه التعليمات الزراعية هي ليست منه ، وانما هي من عند الاله نينورتا ، الفلاح الحقيقي وابن الالـه الاكبر للسومريين ، انليل •

لم تكن زراعة الغلال وحدها معروفـة في سومر آنذاك ، بل هناك ما يشير الى وجود اعمال البستنة وانتاج الخضر والفواكه • وهناك وثيقـة تبين كيفية العنايـة بمثل هذه المنتوجات وتوصي باستعمال اشجار الظل لحماية هذه المحاصيل •

أول مقولة في الكون والتكوين

لقــد اثبتت الوثائق التي اكتشفت وترجمت حتى الان ، بان السومرين كانوا قد اطالوا التأمل في الطبيعة وفكروا فيمنشأ الكون وكيفية قيامــه وتدبره • وهنــاك دلائل تشــير الى ان مفكــري السومريين ومعلميهم ، كانوا في الالف الثالث قبل الميلاد قد وضعوا قواعــد للكونيات واللاهوت ، وان تلك القواعــد اصبحت بعدهم اسسا للقواعد والشرائع التي عرفت في منطقة الشرق الاوسط • الا ان مفكــري السومريين لم يكتبوا معارفهــم القيمة في حقول الفلسفة واللاهوت والكون على هيئة قواعــد أو شرائع ، وانما وردت في أعمالهم الادبية التي خلفوهــا ، كالميثيولوجيا والملاحــم

والحكايات والتراتيل • واهم المعلومات التي يمكن استخلاصهــا من تلك الاثار الادبيــة ، اعتقــاد السومريين بان أهم وحدتين يتركب منهما الكون هما السماء والارض ويعبرون عنهما بقولهم سماء ــ أرض ، اللذين هما باللغة السومرية آن ــ كي• ويعتقدون كذلك بوجود مــادة اخرى بين السماء والارض أطلقوا عليها ــ ليل ــ ومعناها : هواء ، نفس ، روح •ويقولون ان من خواص هذه المادة الأساسية : الحركة والانتشار ، ولذلك فانهــا تقابل ما نعرفه نحن بالغلاف الجوي • ويعتقدون ان الاجرام السماوية كالشمس والقمر والكواكب والنجوم كلها مصنوعــة من مادة هــذا الغلاف ومزودة بالنور • ويقــولون ان آن ــ كي ، أو السماء والارض محاطان من كل الجهات ببحر خضم لا نهاية له وان الكون ثابت في هذا الخضم •

وقد استنتج مفكرو السومريين من اعتقادهم آنف الذكر مقولتهم في التكوين . فذهبوا الى ان مبدأ الكون الاول هو هذا البحر الخضم الذي ولد الكون ، السماء والارض وبينهما الغلاف الجوي الذي انطلقت منه الاجرام السماوية . ويقولون انه بعد انفصال السماء عن الارض وتكون الاجرام السماوية ، وجدت الحياة على الارض .

وقد فكر السومريون بمدبر هذا الكون وما فيه ، وتخبرنا الوثائق السومرية ، ان اللاهوتيين السومريين اعتقدوا بوجود مجموعة من الآلهة شبيهة بالانسان شكلا ، الا انها تمتلك صفتي الخلود والتفوق ، ولا ترى بالعين ، وان تلك الالهة تقود الكون وتدبره بما فيه وفقا لخطط معينة

وقوانين معلومة ، وان كل اله من تلك الالهة مسؤول عن ادارة جزء من هذا الكون ، وتختلف اهمية كل اله وفقا لخطورة الجزء الذي هو مسؤول عنه . واعظم هذه الالهة اربعة ، وهي آلهة السماء والارض والهواء والبحر ، وتلك هي الالهة المسؤولة عن عملية الخلق وفقا لما تقتضيه حاجة المملكة التي يدبرها . وان هذه المجموعة من الالهة تعمل تحت امرة اله واحد كبير يشرف عليها وينظم اعمالها . ولاشك في ان السومريين انطلقوا بتفكيرهم هذا من المعروف الى المجهول ، فاخذوا دليلهم مما عرفوه في مجتمعاتهم ، اذ وجدوا ان المدن والقصور والمعابد والحقول والمزارع كلها تدار من قبل اناس معينين يعملون تحت امرة ملك واحد ، ولولاهم لكانت الارض يبابا والبلاد خرابا . وقد ميز اللاهوتيين

السومريين الالهة بصفة الخلود وذلك لان موت احدهم يعني خراب الكون •

اما كيفية الخلق ، فان الفلاسفة السومريين وضعوا قاعدة اصبحت بعدهم سارية في جميع انحاء الشرق الاوسط ، وتلك هي قاعدة الكلمة السماوية ذات القوة الخلاقة • فان تلك الالهة ، حين تشاء ان تخلق مخلوقات جديدة ، فعليها ان تضع خطة وتنطق بكلمة وتسمي اسما ، فيكون الخلق • ومما لاشك فيه أيضا ان هذه القاعدة بدورها مستمدة مما كان فلاسفة السومريين يرونه في مجتمعاتهم • فالملك يستطيع انجاز أي عمل يريده بأمر او كلمة من فمه • وعلى ذلك ، فان الالهة الخالدة المسؤولة عن الخلق ، لابد ان تكون اقوى من الملك في هذا المجال •

لم يترك السومريون ، كما قلنا ، وثائق لاهوتية او فلسفية تتحدث عن كل هذا ، وانما

استنتج المختصون جميع المعلومات المتعلقة بتلك المواضيع من خلال الاعمال الادبية كالميثولوجيا والملاحم والحكايات والتراتيل التي تمجد الالهة وتتحدث عن اعمالهم ، وتثني على صفاتهم •



أول أمثال وأقوال

كانت الامثال والحكم العبريــة الواردة في العهد القديم تعتبــر اول مجموعــة من نوعها في انعالم حتى تم التعرف على الحضارة المصريـــة القديمــة واكتشفت هناك مجموعات من الامثال والاقوال يسبق تاريخها الامثال العبرية بعــدة سنين • الا ان التعــرف علــى حضــارة وادي الرافدين برهن على وجود مجموعات من الامثال والاقوال والحكم السومرية مكتوبة على الواح الطين وهي تعود الى زمن يسبق الامثال المصرية بعدة قرون •

تتميز الامثال والاقوال السومرية بكــون مدلولاتها كونية تصلح لكل زمان ومكان ، وفي

ذلك دليل على اخوة البشر ووحدة الانســانية • وذلك لان الامثال والاقوال تظهر الحقيقة البشرية عارية من قشور التناقض الناتج من الحضــارة ، والاختلاف الناتج عن البيئة ، فهي من هذه الناحية تتميز عن جميع انواع الادب الاخرى •لقد كتبت الامثــال السومريــة قبل اكثر من ثلاثــة آلاف وخمســمائة سنة ، ولابد انها كانت قد ترددت على ألسنة الناس قبل تاريخ كتابتها بزمن طويل ، ومن المعلوم ان تلك الامثلــة تخص اناســا يختلفون عنا ــ نحن الاوربيين ــ باللغة والبيئة والعادات والتقاليد والسياسة والاقتصاد والدين ومع ذلك كله ، فان تلك الامثال والاقوال السومرية تكشف عن شخصية تشابه شخصيتنا ، ونستطيع ان نلمح في تلك الامثال انعكاسات لدوافعنا ومواقفنا ، زلاتنا ومواطن ضعفنا ، حيرتنا وتخبطنا ، ويجد القارىء أدناه أمثلة من تلك الاقــوال والامثــال

السومريةالتي ما زلنا نجد نظيرا لكلمنها في دنيانا المعاصــرة •

يرد كثيرا في الاقوال السومرية لعن الطالع المنحوس وذلك على لســان الشخص العاجــز الكسول الذي كثيرا ما يضيع فرص النجاح فينحى باللوم على يوم مولده المنحوس •

وهناك قــول سومري يقــال بحق الذين يحاولون تغطية زلاتهم واخطائهم بحجج واعذار واهية في حين ان تلك الاخطاء واضحة لها دلائل تدل عليها • يقول المثل السومري :لا حمل دون رجل ولاسمنة دون أكل • (ويقول المثل عندنا : لا دخان بلا نار) •

ويقول السومري حين تأتي الامور معاكسة لما يريد : ان جئت النهــر ماؤه آسن ، او جئت البستان ثمره عفن • (ويقول الشخص عندنا في

مثل هذه الحالة : لو جيت للشط نشف ولو جيت للنخل حشف) •

ويقول السومريون في الشخص الذي يعمل فينتفع بعمله الاخرون ، دونه هو : غسال الملابس ثوبه وسخ •

(ونقول نحن : ابن الاسكافي حافي) •

ويقول السومري في اهتمام الناس بمظهر الشخص المتمثل بملابسه دون الاهتمام بحقيقته الشخصية : العيون تتجه لاحسنهــم ملبســا • (ونقول نحن في نفس الظروف : اكلن ياهدومي)•

ويقولون لمن يبالغ في التهيــؤ للامور قبل وقوعها : هيأ الطــوق قبل ان يصــيد الثعلب • (ونقول نحن في مثل هذه الحالة : حضر المهد قبل الولد) •

ويقولون لمن يحاول التخلص من أمر سيء فيقع في اسوأ منه : هرب من الثــور الوحشــي

فلقي البقرة المتوحشة . (ونقول نحن : هرب من الدب فوقع في الجب . ونقول ايضا : كالمستجير من الرمضاء بالنار) .

ويقول المثل السومري في مدح التعاون بما ينفع وذم التعاون بما لا ينفع : يدا بيد تبنى البيوت ، ومعدة بمعدة تنهدم . ويقولون في ذم الضعف والتخاذل والاستسلام : عندما تضعف المدينة يلازم العدو ابوابها . ويقولون في ذم الاعتداء على اراضي الاخرين : ان تغنم ارض العدو يغنم ارضك .

ان الاقوال والامثال السومرية التي رأينا جانبا منها ، تعكس مفاهيم القوم ومواقفهم من الامور ، وهي كما يرى القارىء لا تختلف كثيرا عن حكمتنا المعاصرة وذلك على الرغم من الفارق الزمني الهائل الذي يزيد على اربعة قرون . وهو أمر يشير الى مدى تطور الانسان في هذه المنطقة

من الارض وهو تطور سابق لسواه في جميع انحاء العالم .

ملاحظة المترجمة :

لقد اورد مؤلف الكتاب امثلة واقوالا انكليزية مقارنة للاقوال السومرية . واحببت بدوري ان آتي بأقوال شائعة في بيئتنا ومقارنة للاقوال السومرية ، وقد وضعتها داخل اقواس كما يرى القارىء اعلاه .

★ ● ★

أول فردوس في العالم

لقد برهنت التنقيبات التي اجريت في منطقة الشرق الاوسط خلال القرن الاخير على اهمية التراث الروحي والثقافي الذي خلفته لنا الاجيال الغابرة . ذلك لان اكتشاف هذا التراث الذي بقي قرونا تحت التراب والذي كتب بلغات ماتت منذ الوف السنين ، هذا الاكتشاف وسع افق المؤرخين ، والقى الاضواء على خلفية المعلومات الواردة في كتاب العهد القديم ، وجعل العلماء على ثقة بان ماورد في الكتابات العبرية لم يكن جديدا أو منقطعا عما سبقه، وان جذوره موجودة في المكان والزمان اللذين يكتنفانه .

ان التراث السومري واضح الاثر في العهد القديم ، وان هذا التراث لم ينتقل مباشرة الى العبريين لانه كان قد انتهى منذ امد طويل قبل ظهور العبريين الى الوجود . لقد انتقل التراث السومري الى العبريين بواسطة الكنعانيين ، وهم سكان فلسطين الاصليين قبل ان يستولي عليها العبريون ، حيث ان السومريين كانوا قد اثروا تأثيرا كبيرا في الكنعانيين ، كما اثروا في البابليين والاشوريين والحيثين والحوريين والآراميين . وخير مثال على التناظر القائم بين التراث السومري والعهد القديم هو ذلك الذي ورد في الحكاية الميثولوجية السومرية المعروفة باسم انكي ونينهورساج ، تلك الحكاية التي وردت في قصيدة تتكون من ٢٧٨ سطرا مكتوبة على لوح طيني موجود في متحف جامعة

بنسلفانيا ، ويجد القارىء ادناه مضمون تلك الحكاية :

دلمون بلد نقي طاهر نير ، بلد الحياة الذي لا يعرف السقم والموت . ولكن ينقصها الماء الضروري للحيوان والنبات . لذلك اصدر اله الماء السومري العظيم-انكي-اوامره الى -اتو- اله الشمس ، لكي يزود هذا البلد بالماء المستحصل من الارض . فاصبحت دلمون بذلك جنة سماوية تزهو ببساتينها المحملة بالاثمار ومروجها الخضر . انبتت فيها نينهورساج ، الالاهة التي حملت من اله الماء وولدت ، وكانت انباتها بعد عملية معقدة استغرقت ثلاثة اجيال من الالاهة التي حملت من اله الماء وولدت ، وكانت ولادتها دون وجع او جهد . ولكن انكي رغب في تذوق تلك النبتات ، ولذلك قام رسوله الاله ذو الوجهين ،بقلع تلك النبتات واحدة واحدة

وتقديسها الى سيدة انكي ، الذي عمد الى اكلها واحدة بعد الاخرى . وهنا غضبت نينهورساج وعمدت الى لعنته لعنة الموت . ولتؤكد لعنتها تلك وعدم تراجعها عنها ، انسحبت من بين الالهة واختفت .

بدأت صحة انكي بالتدهور ، مرضت ثمانية اعضاء من اعضاء جسده . وبالنظر لتدهور صحة انكي السريع ، فان الالاهة بقيت جالسة في التراب . وقد بدأ انليل ، اله الهواء وسيد الالهة السومرية ، غير قادر على تدارك الامر ، وعند ذلك تكلم الثعلب قائلا بانه قادر على اعادة الالاهة الام الى السماء اذا هم وعدوه بجائزة سخية . وكان الثعلب عند كلمته ، اذ عادت الالاهة الى مكانها بين الالهة ، واعادت اله الماء انكي الى الحياة ، وذلك بأن اجلسته الى جانبها وتعرفت على اعضائه المريضة ، ثم اوجدت ثماني

معبودات ترتبط كل واحدة منهن بعضو من تلك الاعضاء وتكون مسؤولة عن سلامته وحياته ، وهكذا استعاد انكي الحياة والعافية ٠

اما كيفية مقارنة احداث هذه الحكايـــة السومرية بما ورد في العهد القديم فهي كما يلي:

(١) ان فكرة وجود الفــردوس السماوي مقر الالهة انما هي فكرة سومرية ، وان دلمــون نفسها اصبحت ارضــ الحياة والخلــود لــدى البابليين الذين استولوا على الحكم بعدئذ ٠ وانه لمن المحتمل ان يكون الفردوس الذي تحدثت عنه الكتابات العبرية ، والذي وصف بجنة عدن التي تجري منها انهار الدنيا الاربعة ، وبضمنها دجلة والفرات ، هــذه الجنــة هي نفســها فردوس السومريين الذي غدا بعدهم فردوس البابليين ٠

(٢) هناك في القصيدة ايضــا وصف لري البلاد بواسطة اله الشمس من ماء مجلوب مــن

الارض ، وهذا يذكرنا بما جاء في العهد القديم ، الاصحاح الثاني ، الســطر السادس : « ثم كان ضباب يطلــع من الارضــ ويسقي كل وجــه الارض » ٠

(٣) ان ولادة الالاهة دون وجع او جهــد تذكرنا بما ورد في العهد القديم عن اللعنة الموجهة الى حواء والتي تجعل نصيبها تحمل الاذى عند الحمل وحين الولادة ٠

(٤) ان القول عن انكي الذي اكل النبتات واللعنة التي لحقته جراء ذلك يعيد الى اذهانتــا حكاية اكل الثمرة المحرمة من قبل آدم وحواء ، واللعنة التي لحقت بهما بسبب ذلك ٠

(٥) وهناك بالاضافة الى ذلك جانب آخر من جوانب التناظــر بين الحكايــة السومريــة ومقولات العهد القديم ، وهو الذي اشارت اليه

الحكاية عند وصفها اعضاء انكي المريضة ، وان احد تلك الاعضاء هو الضلع • حيث ان المعبودة التي خلقت لاعادة هذا الضلع الى الحياة تحمل اسما سومريا ذا معنيين : احدهما يتعلق بالضلع ، والآخر يذكر باسم حواء ام البشر ، وفي ذلك ما يشير الى خلفية المقولة الواردة في العهد القديم والتي تتحدث عن خلق حواء من ضلع آدم •

★ ● ★

أول بعث وقيامة

يستعمل السومريون كلمة ـ كر ـ Kur للدلالة على العالم السفلي او عالم الاموات الذي يصار اليه بواسطة قارب يقوده ملاح خاص يمخر عبر نهر عباب • ويقابل هذا النهر لدى الاغريق نهر اسطقس الذي يجتازه قارب يقوده ملاح خاص حاملا الموتى الى عالمهم الذي يسميه الاغريق ـ حادس ـ Hades .

وعلى الرغم من ان هذا العالم هو عالم الاموات الا انه لا يخلو من معالم الحياة • ذلك ما تحدثنا عنه الالواح السومرية التي تصف نزول الملك اور ـ نمو الى العالم السفلي كما

يلي : يأتي الملك العظيم اور ــ نمو بعد موتــه الى كر ، فيوزع الهدايا على آلهته السبعة ، كل في قصره • ثم يقدم الهدايا الى الهين آخـرين ، أحدهما كاتب العالم السفلي ، وذلك ليكســب الدعم والمساعدة من الالهة • واخيرا يصل الى البقعة التي كان قد عينها المسؤولون هناك مقرا لاقامته ، فيحييه الاموات تحية طيبة يشعر معها كما لو كان في بيته • ويجد اور ــ نمو ان البطل الميت جلجامش قد اصبح قاضيا في ذلك العالم ، اذ يســارع اليه فيوضــح له جميــع الانظمــة والتعليمات التي تحكم عالم الموتى • ولكن بعد مرور سبعة ايام ، بعد مرور عشرة ايام ، تصل الى اذنيه اصوات الندب والعويل في ســومر ، فجدران اور التي كان قد باشر ببنائها لم يعــد قادرا على اتمامها ، وطفله العزيز لم يعــد قادرا على هدهدته وتدليله ، كــل هاتيــك الامــور

نغصت مقامه واقلقت راحته في العالم السفلي ، فشرع ينوح ويرثي نفســه •

ومن الطريف بالذكر هنا ان وصفا مماثلا لما ورد في اللوح السومري اعلاه ، ورد في العهــد القديم بخصوص نزول ملك بابلي الى عالم الموتى واستقباله من قبل أخيلة جميــع عظماء الارض (اشعياء ، ١٤ ، ٩ ــ ١٤) • علما بان ما ورد في الالواح السومرية سابق للعهد القديم باكثر من ثلاثة الآف سنة •

وبالاضافة الى هذا الوصف ، فاننا نجــد الواحا تخبرنا بأن الاموات يمكن ان يقوموا في مناسبات خاصة فيعودوا الى الارض ، وذلك ما نجده في اللوح الذي يتحــدث عن جلجامشــ ــ انكيدو ــ والعالــم السفلي ، اذ يخبـرنا ان انكيدو قد صعد من كر ، لكي يعانق صديقــه

جلجامش الذي ينتظره على الارض ، كما ينقل اللوح الحديث الذي دار بينهما .

ان اهم الحكايات السومرية التي تدور حول فكرة البعث او القيامة والعودة الى عالم الاحياء بعد الموت هي الحكاية التي تتحدث عن دموزي ــ تموز البابليين وزوجه انانا ــ عشتار البابلية ، ونزولهما الى العالم السفلي ، عالم الاموات ، ثم البعث او القيامة التي عقبت الموت . ومن المعروف ان الاهة الحب كانت قد استهوت أخيلة القدامى عبر الاجيال ، وهي لدى السومريين انانا ، ولدى البابليين عشتار ، وهي افروديت الاغريق وفينوس الرومان ، ولكل واحدة منهن شعراء ومغنون يترنمون باعمالها ويغنون حسناتها وسيئاتها على السواء . اما دموزي ، اله الرعاة السومري ، فهو نفسه تموز البابلي الذي استمر ذكره وورد خبر البكاء عليه

بعد عشرات القرون في كتاب العهد القديم حيث كتب مايلي : « فجاء بي الى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال واذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز». حزقيال٨،١٥ــ١٦ .

كان تموز او دموزي كما تسميه الالواح السومرية ، يسعى للحصول على يد انانا ، فيأتي الى بيتها تفيض يداه وجانباه حليبا وزبدا ، وهو يستأذن في الدخول . وتتشاور انانا مع أمها ، ثم تستحم وتدهن وترتدي ثيابها الملكية وتتزوق بأغلى حليها ، وتفتح الباب لعريسها المنتظر ، فيتعانقان ويحملها بعيدا الى مدينته .

لم يكن تموز ليحلم بأن هذا الزواج الذي انتظره بشوق ولهفة سينتهي الى نهاية سيئة فيؤدي به الى العالم السفلي . لقد خابت كل تقديراته في العيش مع امرأة طموحة كهذه المرأة. ذلك ان الحكاية السومرية تستطرد كما يلي :

على الرغم من ان انانا سيدة السماء العليا العظيمة وملكة الفردوس الا انها كانت تطمح الى مزيد من السلطان مما حدا بها الى السعي كي تحكم العالم السفلي ايضا . لذلك عقدت الامر على النزول اليه لترى ما يمكن تحقيقه هناك . فجمعت كل القوانين السماوية اللازمة وارتدت أجمل ثيابها ومجوهراتها الملكية واستعدت للنزول الى المكان الذي لا عودة منه .

كانت ملكة العالم السفلي هي ايرش كيطال اخت انانا الكبرى وعدوتها اللدود الاهة الموت والظلام . لذلك اتخذت انانا الحيطة والحذر لئلا تحكم عليها بالموت الذي لا قيام بعده ، فأعطت التعليمات الى وزيرها الذي يقف لها بالامر والخدمة وقالت له ان هي لم تعد في مدة اقصاها ثلاثة أيام فعليه ان يقيم على شرفها حفلات التأبين في الجمعية التي تنعقد في صالة الالهة ، وعليه

بعدئذ ان يتوجه الى نفر،مدينة انليل كبير الالهة ويتقدم اليه برجاء كي يسارع لانقاذها فلايدعها تموت فتقيم أبدا في العالم السفلي . كما انها أوصت الوزير بالذهاب الى أور مدينة نانا اله القمر ، وذلك في حالة رفض انليل رجاءه ، ويكرر الطلب والرجاء ، فان رفض انانا ذلك ، فعليه ان يتوجه الى اريدو مدينة انكي اله الحكمة الذي يعرف خبز الحياة وماء الحياة وسوف يسارع الى انقاذها .

نزلت انانا الى العالم السفلي ، ووصلت الى هيكل ملكته المبني من اللازورد ، والتقت عند مدخله رئيس الحرس ، فطلب ان يتعرف على هويتها وسبب حضورها ، ولفقت انانا عذرا كاذبا ، قبله رئيس الحرس بأمر من ملكته . فقاد انانا الى العالم السفلي مجتازا بواباته السبع ، وكلما اجتازت انانا احدى البوابات سلبت قطعة

من ملابسها ومجوهراتها عند تلك البوابة ، وذلك على الرغم من احتجاجها واعتراضها • حتى مثلت اخيرا عارية امام ملكة العالم السفلي وقضاتها السبعة ، فحدقوا بها جميعا بعيون الموت واستحالت الى جدث ميت علق بكلاب •

مرت على ذلك ثلاث ليال وثلاثة ايام ، وفي اليوم الرابع عرف الوزير ان ملكته لم تعد ، فتحرك الى الالهة كي ينفذ ما اوصته به قبل مغادرتها الحياة • ورفض الطلب كل من انليل ونانا ، كما سبق وتوقعت انانا • اما انكي فقد قدم خطة لبعثها ثانية الى الحياة فخلق مخلوقين عديمي الجنس ، وزودهما بخبز الحياة وماءالحياة وبتعليمات خاصة كي ينزلا الى عالم الاموات وينثرا الطعام والماء على جدث انانا • ففعلا ما امرهما به انكي وبذلك قامت انانا من الموت وبعثت ثانية الى الحياة • ولكن عودة انانا الى

الحياة لم تضع حدا لمتاعبها ، حيث ان قوانين العالم السفلي تقضي بالا يغادره احد مالم يجلب بديلا عنه يحتل مكانه فيه ولم تكن انانا لتستثنى من احكام تلك القوانين • لقد سمح لها بالعودة الى دنيا الاحياء ولكنها عادت مصحوبة بعدد من الشياطين القساة مزودين بتعليمات توجب اعادتها الى عالم الاموات اذا هي عجزت عن ايجاد بديل يحل محلها فيه • عمدت انانا وهي بصحبة تلك الشياطين الى زيارة بعض المدن السومرية حيث قدمت لها آلهة تلك المدن شعائر الاحترام والطاعة وتمرغت بالارض عند اقدامها وحين حاولت تلك الشياطين اخذ احد هذه الالهة بدلا من انانا ، لم توافق وانقذتهم من هذا المصير •

واصلت انانا رحلتها بين المدن السومرية فوصلت الى كولاب ، وكان اله هذه المدينة هو

تموز زوجها • ولكونه زوجها ، فانــه رفض ان يتمرغ بالتراب تحت قدميها كما فعل الهة المدن الاخرى ، بل انه فعل العكس تماما ، اذا ارتدى حلة الاحتفالات ووضع على رأسه تاجه الملكــي بشموخ • غضبت انانا من سلوكه هذا ، وحدقت به بعيون الموت ، وسلمته الى الشياطين ليحملوه بدلا منها الى العالم السفلي • شحب وجه تموز وبكى ورفع يديه الى السماء وصلى الى اوتو اله الشمس وأخ زوجه انانا ونسيبه • طلب من اتو ان يساعده فيخلصه من قبضة الموت وذلك بتحول يده الى يد حية،وقدمهالى قدم حية•ويبدو ان شفاعة اتــو لم تفد حيث نزل تموز الى العالم السفلي ، عالم الاموات •

كل ذلك وردضمن قصيدةوجدت مكتوبةعلى احد الالواح السومرية بعنوان : هبوط انانا الى العالم

السفلي • (وتنتهي الحكاية بــان لخت تمــوز استطاعت ان تكتشف مكانه ، وان انانا أمــرت اخيرا بان يبعث تموز الى دنيا الاحياء ستة أشهر في السنة على ان تكون اخته بديلا عنه في العالم السفلي) •



أول ملحمة وعهد فروسية

حين ترجمت بعض الالواح التي عثر عليها في نينوى في اواخر القرن المنصرم ، اتضح ان احدها عائد الى مكتبة اشور بانيبال الذي حكم خلال القرن السابع قبل الميلاد ، وان هذا اللوح يتضمن حكاية عن الطوفان شبيهة بما ورد عن هذا الموضوع في سفر التكوين من كتاب العهد الجديد • وقد عرف بعد دراسة هذا اللوح والالواح الاخرى المستخرجة من المكتبة نفسها ، بان قصة الطوفان هذه تشكل جزءا من قصيدة طويلة كان الكتاب البابليون القدامى يدعونها حلقات جلجامش وهي التي نعرفها اليوم بملحمة جلجامش •ويذكر اولئك الكتاب ان الملحمة

تتألف من اثنتي عشرة أغنية تحتوي كل منها على ثلاثمائة بيت •وقد وجدت كل اغنية من تلك الاغاني مكتوبة على لوح منفصل في مكتبة اشور بانيبال الشهيرة ، ويحتوي اللوح الحادي عشر على القسم الاعظم من قصة الطوفان • وقد تلا ذلك الاكتشاف اكتشافات اخرى في العراق تشير الى ان تلك الملحمة كانت قد كتبت في الفترة البابلية القديمة التي تعود الى القرن السابع عشر او الثامن عشر قبل الميلاد ، كما ان تلك الملحمة او بعض اجزائها ، وجدت مترجمة الى اللغة الحورية والى اللغة الحثية في اسيا الصغرى • ومن هنا يتضح ان تلك الملحمة كانت قد درست وترجمت الى اللغات القديمة وانها عرفت وقلدت منذ الازمان الغابرة في جميع مناطق الشرق الاوسط ، كما انها لقيت اقبالا عظيما واهتماما من قبل العلماء والباحثين في وقتنا الحاضر •

ان اهتمام الناس القدامى منهم والمعاصرين بهذه الملحمة يعود الى ما تضمنته من مفاهيم انسانية وعناصر مسرحية جعلتها فريدة من نوعها في الادب البابلي ، وذلك لان المتعارف في ذلك الادب هو ان الدور الاهم في الحكايات كان يعهد الى الالهة الذين يمثلون قيما مجردة وحتى في الحكايات البابلية التي يكون ابطالها من البشر ، فان هؤلاء البشر يؤدون ادوارا آلية ويتحركون كما تتحرك الدمى • اما بالنسبة لملحمة جلجامش ، فان الامر مختلف تماما • ذلك لان بطل الساحة فيها هو جلجامش الانسان ، الذي يحب ويبغض ، يفرح ويبكي ، يكافح ويعجز ، يأمل وييأس • ولا ينكر هنا ان جلجامش الميثولوجي هو شخص ثلثاه سماويان وثلثه الباقي أرضي ، ولكن بطل الملحمة هو الانسان • واما الالهة وتحركاتهم فتؤلف خلفية لتحركات البطل

وتطلعاته التي تتمثل فيها تطلعات الانسان وتحركاته في كل زمان ومكان • ومن ذلك حاجته الى الصداقة ، تطلعه نحو الوفاء ، طموحه نحو الصيت والشهرة ، حبه المغامرة وتحقيق الغرض ، خوفه الدائم من الموت وطموحه نحو شباب خالد وحياة باقية • لهذا كان أثر هذه الملحمة بالغا على الاداب الغابرة من جهة ، وعلى القارىء الحديث الذي لا يسعه ان قرأها ، الا ان يؤخذ باحداثها ويتأثر بعظم مأساتها •

تفتتح الملحمة بمقدمة قصيرة تدور حول جلجامش ومدينته الوركاء • ونعرف من خلال المقدمة ان جلجامش هو بطل لا نظير له ، وانه يحكم مدينته حكما مطلقا ويتصرف بأهليها وعذاراها وفقا لرغباته واهوائه ،لذا يصرخ اهالي المدينة مستنجدين بالالهة ، فتدرك الالهة ان جلجامش انما طغى لانه لم يجد من يناظره

قوة ، وتوعز الى اورورا ، احدى الألاهات المكلفات بالخلق ، فتعمد هذه الالاهة الى خلق انسان من الطين ، هو انكيدو الجبار ، خلقته في البرية ، ومضى يعيش في القفار بين الوحوش قويا متوحشا مثلها • وتهيأ له بغي من الوركاء تغويه وتروضه ، فتجلبه هذه التجربة الجنسية الى دنيا البشر ، اذ يسي اكثر تعقلا وحكمة ، وتنكره الوحوش ولم تعد تعتبره منها • وتعلمه البغي فنون العيش في المدينة وما يتطلبه ذلك من اصول الملبس والمأكل والمشرب • ويكون انكيدو بعد ذلك قد أعد للقاء جلجامش ، ويكون هذا الاخير قد نبىء من خلال احلامه بقدوم انكيدو• ويلتقي البطلان في مبارزة ، ابن المدينة المتحضر جلجامش ، وانكيدو ابن البادية البسيط ، ويبدو ان انكيدو يتفوق في المبارزة ، فيفارق جلجامش غضبه ، ويتعانق البطلان ويقبل احدهما الاخر

كما يفعل الفرسان ، وتنشأ بينهما صداقة متينة ؛ وهي صداقة جديرة بان تكون مضرب الامثال في بقائها واخلاصها وغناها بالاعمال البطولية •

لم يكن انكيدو سعيدا في الوركاء ، ذلك لان حياتها الملأى بالراحة والملذات كانت توهن قواه ، فعمد جلجامش الى البوح لصديقه بخطته المغامرة بالسفر الى غابة الارز البعيدة وقتل حارسها خمبابا وقلع اشجارها واتلاف شرورها • وكان انكيدو عليما بهذه الغابة اذ طالما جاس خلالها أيام توحشه ، لذلك حذر صديقه جلجامش من الخطر المميت الذي سيجابهه في مشروعه • ولكن جلجامش هزىء من مخاوف صاحبه ذلك لانه يتوق الى الشهرة والصيت • فعمد الى استشارة رجال الوركاء ، والى استحصال التأييد من الاله الشمس ، دليل المسافرين ، كما طلب من مهرة الصناع في الوركاء فصنعوا له ولصديقه

اسلحة ضخمة ، وهكذا انطلقا في مغامرتهما • وبعد رحلة مضنية وصلاالى غابة الارزالجميلة المحيرة، فقتلا حارسها وقلعا اشجارها وعادا الى الوركاء فشاعت انباء بطولتهما ، ووصلت اخبارهما الى عشتار ، الاهة الحب والرغبة ، ففتنت بجلجامش وصارت تمنيه الامنيات الحسان محاولة اغراءه وجذبه اليها ، ولكن جلجامش لم يعد كما كان قبل رحلته تلك ، لقد تغير كثيرا ، وكان جلجامش ايضا على علم بنزواتها وغدرها ، فاستهان بوعودها وازدراها • وشعرت عشتار بخيبة ومذلة ، وعمدت الى اقناع انو ، اله السماء كي يرسل الثور السماوي الى الوركاء فيحطم جلجامش ومدينته • رفض انو بادىء الامر ، ولكن عشتار هددت باخراج الموتى من العالم السفلي ، وحينها اضطر انو الى استجابة طلبها • فهبط الثور السماوي وبدأ يعبث بالوركاء فسادا

ويقتل المئات من محاربيها • لذلك انبرى جلجامش وانكيدو كلاهما لمواجهة الثور السماوي واستطاعا ان يقتلاه بعد جهد جهيد •

وصل البطلان حينها الى قمة الشهرة ودوت الوركاء بالاغاني تمجيدا لهما • ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان حيث ان قتلهما خمبابا حارس غابة الارز ، والثورالسماوي جعل الالهة تغضب وتقضي بموت انكيدو موتا عاجلا • مرض انكيدو مرضا لم يمهله اكثر من اثنى عشر يوما فلفظ نفسه الاخير بحضور جلجامش الذي كاد يقتله الاسى والحزن اذ لم يستطع شيئا ازاء موت صاحبه • لقد اثار في نفسه موت انكيدو فكرة مريرة ، لقد فقد صاحبه ، وسيلقى هو نفسه المصير ذاته ان عاجلا او آجلا • لم يعد ليسليه ما نال من صيت عظيم وشهرة واسعة من اجل اعماله السابقة ، فقد تاقت نفسه لتفادي الموت ، وكان

عليه ان يفتش حتى يستطيع ان يجد سر الخلود على هذه الارض •

كان جلجامش يعرف ان شخصا واحدا في التاريخ نجح في تفادي الموت فبقي حيا ابدا وذاك هو اوتو ـ نبشتم ، ملك شروباك العتيقة الحكيم التقي ، وشروباك (فاره الان) وهي احدى المدن الخمس التي عاشت قبل الطوفان • فصمم جلجامش على الذهاب الى اوتو ـ نبشتم مهما كلفه الامر ،لعل ذلك البطل الخالد يكشف له عن سر الخلود • قطع جلجامش في رحلته تلك مسافات شاسعة من جبال وسهول وتعرض فيها للوحوش والجوع والعطش ، اجتاز نهر الموت ، تعب وانهارت قواه وطال شعره وشعثت احواله واتسخ جسده المسربل بجلد حيوان طري • وصل حاكم الوركاء الذي كان يشمخ كبرا واعتزازا ،

الى اوتو ـ نبشتم ووقف امامه متلهفا لمعرفة سر بقائه •

لم تكن كلمات اوتو ـ نبشتم مشجعة ، اخذ يقص على جلجامش قصة طويلة تدور حول الطوفان المخرب الذي ارسلته الالهة غضبا على سكان الارض ورغبة منها في افنائهم ، وقال اوتو ـ نبشتم بان ايا ، اله الحكمة نصحه ببناء فلك يمكنه من النجاة ، ولولا ذلك لكان مع الهالكين • ان الالهة ارادت له البقاء ، فهل من اله يريد البقاء والخلود لجلجامش؟ يئس جلجامش وهم بالرجوع الى الوركاء صفـ اليدين ، ولكن خيطا من الامل لاح له ، وذلك لان اوتو ـ نبشتم ، استجاب لرغبة زوجته ، فدعا جلجامش وكشف له عن موضع النبات الذي يديم الشباب ويبقي الحياة ،وهو موجود في موضع تحت اعماق البحر • غاص جلجامش في

الاعماق وجلب نبات الحياة وعاد مبتهجا في طريقه الى الوركاء • ولكن الالهة لم تشأ له الخلود ، اذ نزل يستحم في بئر على طريق عودته ، فجاءت حية وانتزعت عشب الحياة ، وهكــذا كتب على البطل ان يعود الى بلده منهوكا يتجرع مــرارة اليأس ويبحث عما يمكن ان يسليه داخل جدرانها •

ان ملحمة جلجامش ، التي عرضنا ملخصـــا لها اعلاه ، وجدت مكتوبة على الواح من الطين ، ويعود تاريخ كتابها الى الفترة البابلية القديمـــة كما ذكرنا ، ولكن الوثائق تشير الى ان ابطالهـــا وعناصرها المهمة تعود الى فترة أقدم ، وتلك هي الفترة السومرية • وبذلك تكون الملاحـــم وادب الفروسية في وادي الرافدين قد سبـــق الالياذة والاوديسة واداب الفروسية في العالم باكثر من الف ســـــنة •

أول اغنيــة حب

هناك لوح ســومري صغير يحمل قصيدة تتألف من مقاطع عديدة تغني الجمال والحب • انها عــروس تغني ابتهاجا وتناجي عروسها الملك شو ـــ سن ، الذي حكم ارض سومر قبل حوالي اربعة الآف سنة • وتلك هي اقدم اغنية حب كتبها انسان في تاريخ البشر •

كانت هذه الاغنية ترتل عند اجراء المراسم الدينية اللازمة في الزواج المقــدس . حيث كان السومريون يعتقدون ان على الحاكم فرضا يقضي بزواجه سنويا من احدى الكاهنات اللائي نذرن انفسهن لانانا ، الاهة الحب والخصب ، وبذلك

تتحقق كثرة الانتاج للاراضي ووفرة النسل للامهات . كان هذا العرس يقام في عيد رأس السنة ، ويسبق بحفلات وولائم وموسيقى واغان ورقص ، وكانت القصيدة المكتوبة على اللوح الصغير ، ترتل من قبل عروس الملك المختارة ، في اثناء تلك الاحتفالات ، ويجد القارىء أدناه ترجمة لتلك الاغنية :

ايها العروس ، حبيب انت الى قلبي ،
وسيم انت ، جميل ، حلو كالعسل ،
ايها الاسد ، حبيب انت الى قلبي ،
وسيم انت ، جميل ، حلو كالعسل .
لقد ملكتني ، فدعني اقف امامك واجفة ،
ايها العروس ، هلا حملتنيمعك الى المخدع!
لقد ملكتني ، فدعني اقف امامك واجفة ،
ايها الاسد ، هلا حملتني معك الى المخدع .
ايها العروس ، دعني اضمك الي ،

ان حضني اشهى من العسل .
وفي المخدع المفعم عسلا ،
دعنا تتمتع بهذه الوسامة الحلوة .
ايها الاسد ، دعني اضمك الي ؛
فحضني اشهى من العسل .
ايها العروس ، لقد تمتعت وابتهجت معي ،
فاخبر امي ، وستقدم لك الطيبات ،
وأبي ، سيغدق عليك الهبات .
روحك ، انا ادري كيف ابهج روحك ،
ايها العروس ، اغف في بيتنا حتى الفجر .
قلبك ، انا ادري كيف ابهج قلبك ،
ايها الاسد ، اغف في بيتنا حتى الفجر .
ما دمت تحبني ،
فضمني اليك ،
يا شو ــ سن الذي ملأ قلب انليل غبطة ،
ضمني اليك .

ان هذه الاغنية هي اغنيــة اناتا (عشتار البابلية) وهي ، كما قلنا ، اقدم أغنية حب كتبها انسان في تاريخ البشر ، وهي تذكرنا بنشـــيد الانشاد ، الا انها سبقته بعشرات القرون .

★ ● ★

أول عصر ذهبي

ان العصـــر الذهبي ، كما هــو معروف في الميثولوجيا الكلاسيكية ، هو العصر الذي يعيش به الانسان في سعادة كاملة . وقد عثر بين الالواح السومرية على لوح يشير الى اول فكرة خطرت ببال الانسان حول مثل هذا العصــر الـذهبي ؛ وقد جاءت هذه الفكرة في ملحمة تحت عنوان ــ انمركار وبلاد اراتا ، حيث تضمنت تلك الملحمة مقطعا يتكون من واحد وعشرين بيتا تصف حالة من السلام والنعيم والامن عاشها الانسان ، ثــم سقط من نعيمه هذا نتيجة غضب الالهة . ويجد القارىء ادناه ترجمة لهذا المقطع :

كان ما كان ،
فترة من فترات الزمان
لا وجود بها للافاعي ولا السباع
لا وجود بها للكلاب المتوحشة ولا الذئاب
لا وجود بها للخوف والرعب
لا منافس بها للانسان
كان ما كان
فترة من فترات الزمان
امن وسلام في ارض سومر ،
ارض الشرائع السماوية ،
كان العالم كله يعيش في وحدة
يصلي لانليل بلسان واحد
ولكن جاء حين آخر
كان به الاب المولى ، الاب الملك ، غاضبا
(هنا اسطر غير واضحة)

ان الاسطر المترجمة اعلاه تتحدث عن الايام السعيدة التي كان بها الانسان لا يخشى منافسا او حسودا ، يعيش في دنيا سلام ورخاء وانسجام ، وكان البشر جميعهم متحدين ، يعبدون الها واحدا هو انليل ، ويرفعون صلاة واحدة بلسان واحد • ونحن ان اخذنا هذا التعبير ــ بلسان واحد ــ حرفيا ، لوجدنا ان السومريين (وليس العبريين) هم اول من قال بان سكان الارض كانوا يتكلمون جميعهم بلسان واحد قبل ان تتبلبل الالسنة وتختلف اللغات ، وان السومريين (وليس العبريين) هم اول من تحدث عن الجنة التي عاش فيها الانسان زمنا قبل سقوطه نتيجة لغضب المعبود •

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(١٢٢٨) لسنة ١٩٨٠

فهرست المحتويات

Petty Encyclopedia
A Fortnightly Cultural
Series dealing with various
branches of Science, Art,
and Literature

Issued by Dar — Al-Jahidh
Al-Khulafa Street — Baghdad

Editor-in-Chief
Musa Kraidi

